

شهوانية إلى حد المرض، تحون زوجها، ذلك الرجل المثالي، مع أول قادم. وإذا بالصدمة العيفة تصيب «راهب الفكر» وتبلغ حداً يصعب تصويره؛ إذ لم تكن قداسة الحب وحدها هي التي سقطت من السماء إلى الأرض، وتلطحت سحقاً الأرض، و«لكن كل شيء.. كل شيء عزيز سقط فجأة من عليائه في التراب وتلوث.. يا له من عجب، كيف استطاعت هذه المرأة أن تكون كذلك!.. وكيف استطاع هو أن يصنع ذلك التمثال الشاهق ببله وطهارته.. يا له من أحمق!.. لقد كان شأنه شأن طائفة الوثنيين الذين صعدوا من الطين والوحل آلهة يعبدونها..»⁽⁵⁵⁾.

وتذكر تلك الأوراق التي كان يقضي الليالي منكباً عليها ليسكب فيها عواطفه، فرأى في كل سطر منها ضحكة ممتدة تشهد على عفلة وسذاجه، فلم يتمالك أن انهال عليها يمزقها ويرميها في سلة المهملات.

ولم تقتصر ثورة «راهب الفكر» على هذه الفتاة فحسب، بل تعدتها إلى الثورة على المرأة من حيث كونها امرأة. «المرأة.. ذلك الجهار الذي لا يرسل إلا إشارات الغريزة.. لعنة الله على النساء!.. لعنة الله على النساء!..»⁽⁵⁶⁾.

وهذه الخيبة نفسها يبنى بها الحكيم نفسه في قصته «وجه الحقيقة» المنشورة في كتابه «أربي الله»؛ فقد نزل الحكيم في أحد الفنادق بجوار فتاة رائعة الحسن مصادفة فاحتلت مكانة محترمة في قلبه، وصار يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل يسترق السمع من خلال خصاص الباب، ليتمتع بسماع أنفاسها الخفيفة، وسعالها اللطيف، أو صوت كتاب تقلب صفحاته، أو هديل ضحكاتها الصغيرة، وما انفك يقيم لها في رأسه تماثيل من ذهب ويستوحىها فيما يكتبه من سطور.

وعندما يعرض عليه صديقه، وناشر كتبه، أن يسأل عنها ليعرف حقيقتها، يتع وتخوف من الاطلاع على صورتها الواقعية، مكتفياً باتخاذها ملهمة في كتاباته:

«- نحن لم نعرف بعد عن هذه المرأة إلا ما صورته لك مخيلتك.